تتردد فى شعره المبكر عندما كان يحلم بثورة عربية تُطيح بالحكام الأعاجم،وتعيد الأمر إلى أيدى أصحابه العرب ، وفى صوته البدوى المتمثل فى حبه للبداوة ، واعتزازه الشديد بالتراث العربى فى شتى مجالاته ، نسمع أصداء صوت المتنبى القديم فى دعوته للعروبة ،ورفع سعار العودة إلى البداوة ، ففى شعر البارودى نرى تلك الرغبة فى العودة إلى بساطة الحياة وصفاء الطبيعة فى البادية التى يراها خيرا من حياة المدينة بما فيها من أستار وحُجُب تخفى هذه البساطة وهذا الصفاء، وفى شعره أيضا نرى تلك الصورة الجميلة من الغزل فى البدويات ، وتفضيلهن على الحضريات التى دعا إليها المتنبى ، وحققها فيكثر من قصائده ، ولا شك فى أن هذا اللون من الغزل البدوى كان كما كان عن المتنبى ، رمزاً تراثيا لأحلام الفارس العربى القديم التى كان يعيش بها ، والتى كان يتمنى لو تحولت إلى واقع يعيد للحياة العربية أصالتها وعنفوانها وفحولتها .

وكما عاد المتنبى إلى الشعر القديم يستمد من أصوله الثابتة لغته وأسلوبه وصياغته ليمزجها ويزاوج بينها وبين متغيرات عصره ، عاد البارودى إلى هذا التراث الشعرى ، يستمد منه توابله ، ويزاوج بينها وبين المتغيرات الجديدة فى عصره ، وعلى امتداد ديوانه نجد ظاهرة استغلال التراث واضحة فى كثير من قصائده ، وهو لا يكتفى بأن يستمد منه معجمه اللغوى ومعجمه التصويرى وصياغته الأسلوبية ، بل يستمد منه أيضاً رموزه الفنية ولوازمه الثابتة ، وأدوات بناء قصائده أعرابية وحسية على حد عبارة بشار المشهورة أسماء أعلامه وقبائله والمواضع التى أكثر الشعراء من ذكرها ، وأسماء المحبوبات التى كان الشعراء يتخذون منها رموزاً لحبهم ، أو تعبيراً عن تجاربَ حية عاشوها فى حياتهم .

لم يكن دور البارودى فى ثورته الإحيائية مجرد العودة إلى التراث أو الوصول إلى منابع النهر ، وإنما كان هدفه من هذه العودة أن يبدأ معها رحلة